

١ - إدريس الشرايبي

من كتاب الطليعة الذين بنوا لأنفسهم مجداً ومكانة مرموقة في الأدب الفرنسي المعاصر ، ولفت أنظار النقاد فانقسم هؤلاء بين محبذ ، معجب ، متحمس ، منصف يرى في آثار الشرايبي صدى لمساوئ الاستعمار وما ينطوي عليه من جرائم فظيعة ، وبين ناقد غاضب مبغض يرى في آثار الشرايبي وسواه من الكتاب الجزائريين كفراناً للجميل والنعمة ، وتنكراً للغة التي يكتب بها ، وإنكاراً لعمل فرنسا الحضاري التمدني في أفريقيا الشمالية ! وقد أسهم الجانبان في التعريف بالشرايبي والدعوة له . تلقى الشرايبي علومه الأولية في بلدة تلمسان ، ثم رحل إلى باريز يدرس الكيمياء ، ولعل دراسته لهذا العلم يفسر هذه البراعة في التحليل والدقة في الملاحظة واصطياد النواحي الخفية وتثبيت الصور الآبقة التي يلاحظها بعين الفن الواعي الموهوب .

واشتهر الشرايبي بروايته « التيوس » وهي رواية قوية عبر فيها عن حياة أديب جزائري جاء فرنسا ليكتب ويعيش من

أدبه وفنه . ولكن أنى له ذلك وهو من قوم دون أهل البلاد .
 وذو عقلية مخالفة لعقليتهم ونظرة للوجود لا تمت إلى نظرهم
 بصلة ولذا عاش ساخطاً متبرماً ناقماً على الذين حرموه نعمة
 الحياة وأفسدوا عليه عيشه وأذلوا نفسه ، فلم يمكنوه من الارتفاع
 فوق المستوى الذى يعيش فيه مواطنوه « التيوس » وهم الجزائريون
 الذين رحلوا إلى فرنسا للعمل فى معاملها ومزارعها . وقد استطاع
 الشرايبي أن يعبر عن آلام مواطنيه ، فقد عاش معهم « يأكل
 ما يجد ، وينام حيث يتيسر له مكان للنوم ، ويشغل أحياناً
 حسب الظروف عاملاً ، وبائع صور خلاعية ، وحمالاً وعامل
 منجم فى الأعماق الكبرى » ولذا تراه صور لنا جميع الأوساط
 التى مرّ بها وذاق مرارتها وبؤسها . وأنت ترى أنه لم يقف موقف
 الروائى الوصّاف بل استحال فى روايته إلى فرد من بنى قومه ،
 وجزء من كفاحهم حتى ليتساءل المرء فى بعض أجزاء الرواية
 عما إذا لم تكن هذه ترجمة ذاتية للمؤلف .

كيف يعيش هؤلاء الجزائريون فى فرنسا ، وما هى الظروف
 التى أدت بهم إلى هجر بلادهم والعيش فى ديار الغرب ؟

إن هؤلاء الجزائريين قصة مؤلة أوجدها الاستعمار وسوء

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الجزائر ، ونخلصها أن هؤلاء القوم لم يهاجروا إلى فرنسا كما يدعى الاستعماريون بدافع من « ميل غريزي عند الجزائري للرحلة والتنقل » ولم يهاجروا طلباً للمتعة واللهو ، بل لعل هذين الأمرين جديران بأن يصرفاهم عنهما ، فإن أكثرهم وعددهم يربو على الثلاثمائة ألف من طبقة العمال الزراعيين ، فعوضاً عن أن يشتغلوا في فرنسا بالزراعة اشتغلوا - وذلك لرخص أجورهم - في أكبر الصناعات مشقة وقذراً ، وأشدها فتكاً بالصحة كالصناعات الكيميائية والزيتية ومصافي النفط والصناعات الفولاذية والحديدية الثقيلة والمناجم وبخاصة العميقة منها ، فهم ينتقلون فجأة من مناخ حار مشمس إلى بلاد قارية كثيفة الضباب والرطوبة ، يجابهون هذا المناخ القاسي بثياب رقيقة يرتدونها في الفصول الأربعة على السواء ، وهم إلى أميتهم يعيشون في بلاد يجهلون عادات أهلها ولغتهم ، أتوا إلى فرنسا دون مال أو أسرة بعد أن غرر بهم مواطنوهم فيتجمعون حسب القرى والبلدان التي خرجوا منها ، يتكدسون في أكواخ حقيرة ، محرومين من الغذاء ، تنتشر بينهم الأمراض السارية ، يقطن أربعة أو خمسة أو ستة رجال في غرفة واحدة يستأجرونها بأفدح الأثمان ، يطهون طعامهم

بأنفسهم اقتصاداً بالنفقة من جهة ، وأنفة من المطبخ الأوربي من جهة أخرى . فإلى جانب فئة ضئيلة من هؤلاء المهاجرين الذين جاءوا إلى فرنسا ليعملوا في مهن حقيرة نجد الأكثرية منهم لا هم لهم سوى جمع كمية من المال والعودة بسرعة إلى بلادهم ليتحرروا بما جمعوه من قبضة المرابين الذين رهنوا عندهم مزارعهم وأراضيهم .

ولهذه المشكلة أسباب أخرى حرصت فرنسا على بقائها تؤدي كلها إلى انخفاض مستوى اليد العاملة والتوسع في سياسة الإفقار والتهمجير

أما بداية المغامرة كما يراها إدريس الشرايبي في رواية « التيوس » فهي في تلك اللوحات الإعلانية المنصوبة على الجدران في مدينة الجزائر القديمة أي في الأحياء العربية ، وهي تغري الجزائريين بحروف حمراء هائلة بالرحيل إلى فرنسا ، لأن فرنسا بحاجة إلى أيد عاملة ، وأن الديمقراطية خصبة في تلك البلاد ، وأن على من يريد الرحيل أن يسجل اسمه في الوكالة التي تدفع له حتى نفقات سفره .

حتى إذا وصل هؤلاء المهاجرون بعد أن باعوا ما يملكون

أو استدأنا مبالغ من المال لقوا المصير الذى ينتظرهم فعوضاً أن يجدوا العمل والرخاء تلقىهم البطالة بشبحها الخيف ، فأعطوا بطاقة العطالة ، وهى من الورق المقوى : مستطيلة الشكل يحملها كل عربى « لكى يكون على وفاق مع المجتمع الذى نبذه » ثم يقضون أياماً طويلة يتسكعون أمام مكاتب العمل قبل أن ينحدروا إلى مهاوى البؤس والانحلال ، فقد أتوا من بلادهم وهم شديداً الأجسام أقوياء البنية فإذا بهم الآن « يدخلون ويخرجون ، هزيلي الأجسام ساغبين ، لاغبين ، يشبه بعضهم بعضاً كأن لهم وجهاً واحداً ، كامدى اللون وضع لكل منهم ثقب إضافى على بطاقته فيضعها فى محفظته بعد أن يطويها بعناية ، ويربطها بخيط ، وكنت تسمع عند خروجهم صوت تذرهم وسخطهم على الحياة فى سبحة طويلة من الشتائم » .

وكذلك كان مصير بطل الرواية كمصير مواطنيه ، بطالة قاتلة للكرامة ، ومشجعة على الحسة والجريمة فهو يقول عند تسلمه بطاقته التى لا تسمن ولا تغنى من جوع مخاطباً المكلف بمكتب العمل : « لقد أكلت بطاقتى ، ولكنها لم تسد جوعى ، ويلزمنى كيلو من البطاقات كل يوم ، وبما أن الله سيعيد

خلق كل يوم فإني أطالبكم بكيلو من البطاقات ، فهي الكمية التي تلتزمي » .

ولو أن هذه البطاقة وهذا التعويض داما لخففا من بؤس هؤلاء المساكين ، ولكن عهد البطاقات قد انقضى حتى بات من الذكريات الحلوة . فقد كان هؤلاء العمال يتذكرون وهم يقهقهون ، ذلك الدور الاجتماعي من حياتهم حين كانوا يحملون بطاقات العطالة يختمونها في يوم معين ويرسلون إلى ذويهم في الجزائر جزءاً مما يقبضون حتى قال هؤلاء : « وإن المسيحيين يدفعون لأولادنا مالا دون عمل ، وأصبح من الصعب الحؤول دون لحاق النساء والأولاد والأقارب والأصدقاء بهم إلى فرنسا » .

كان من الطبيعي أن يفقد هؤلاء المهاجرون كرامتهم ، وأن يصبحوا فرائس سهلة للانحطاط الخلقي ، وأن يعيشوا عيشة المنبوذين ، عيشة أقرب إلى الحيوانية منها إلى الإنسانية وقد حفلت رواية « التيوس » بالمشاهد الواقعية المذهلة التي ترك في نفس القارئ أصداء نفسية مؤثرة :

« كان المهاجرون ينامون في أقبية يصعب على المرء

اجتيازها إلا منبطحاً . وهي محرومة من اخواء والنور . لا يخرج ساكنوها منها أبداً . وإذا خرجوا منها اتخذوا الخيطة اللازمة فأحلوا ولو وقت قصير مواطنهم محلهم . مسلحين بالمدى . مستلقين على فرشهم ينتظرون إيابهم . ستون عربيا في كل قبو يحمون بضراوة ما يسمونه ملكهم وشخصياتهم . وما هذا وتلك سوى فرش هزيلة رقيقة كدف خشبية . سوداء . تحرك راثحتها الكريهة الغثيان ، شغلت مساحة القبو بأكملها . تفصل بين فراش وآخر حدود رمزية ، ولكنها حتمية إلزامية كالعقيدة ، ولا يستطيع الإنسان المنطوي المكث في الفراش إلا بعناء لأنه يجهل ما وضع فيها ، فهي إلى جانب وظيفتها كأداة للنوم تقوم في الوقت ذاته مقام الخزانة وطاولة الطعام ، ومستودع الحاجيات وأنواع الأواني والسلع والمقالي وعلب الكونسروة الفارغة وقطع إطارات الكاوتشوك وكسرات الخبز اليابس ، كما مدت في القبو حبال من جدار إلى آخر علقت عليها ما عجزت الفراش عن استيعابه ، وكذلك الوصول إلى الفراش والاستلقاء عليه لا يمكن اكتسابه بالتعلم فهي هبة موروثة ! إذ على الداخل أن يعرف كيف يقفز منثنيًا من الباب إلى الفراش دون أن يصدد شيئاً من سقط المتاع المعلق على الحبال وإلا نشب القتال الهائل .

ومع ذلك فعلى الفرد أن يعرف كيف يكتفى بالمساحة الضيقة ،
 وألا يشخر في نومه إلا إذا سبقه الآخرون في شخيرهم بزمن بعيد ،
 وأن يشخر معهم حسب الإيقاع وارتفاع الصوت أو انخفاضه ،
 وإذا لسعه القمل والبق فلا يحكن جلده ، لأن حكة صغيرة
 تهدم هذا القصر الورقي ، ومع ذلك فإن أية محاولة لقتل هذه
 الطفيليات مضيعة للوقت لأنها والصراصير والعث خصبة جدا
 وعنيدة ، ونشيطة .

نعم إن في القبو لمبة كهربية معلقة في السقف ، مصنوعة
 بقفص حديدي يطفئها صاحب الدار حسب مشيئته ومزاجه
 من منزله في الطابق العلوي ، كما أن سواها من الأضواء ممنوع
 إطلاقاً ليس من قبل صاحب الدار فهو لا تطأ قدماه
 القبو أبداً ، بل من نزلائه الجزائريين لأنهم لا يريدون أن يرى
 بعضهم بعضاً ، ويأبون أن يروا بؤسهم ، وهم يتساحون إلى أبعد
 حد بهذه اللمبة الكهربائية المغبشة القدرة البائسة مثلهم .

وتدفع أجور هذه الأقبية كل أسبوع مقدماً ، وهي غالية
 جداً ، أسعارها أقل بقليل من أجور الفنادق المشبوهة ، ولكن
 صاحب الدار يستغل « النواحي الوراثة في العرق العربي التي

تحتم ألا يعيش العربي ويظهر ويموت إلا عربياً وفي وسط
عربي .

وهل بلغك نبأ الحبال ! هي حبال قوية من مرس الكتان ،
شدت إلى جدارين على علو ذقن إنسان ، طويلاً أو قصيراً ،
وقد وضعت تحت الحبل مقاعد يجلس عليها النائم مسنداً ذقنه
على الحبل ، ويدفع النائم لقاء كل ساعة نوم مبلغاً معيناً حتى
إذا انقضت الساعة امتدت إلى النائم يد تهزه بدون شفقة ! .

أما اليقظة فهي مفجعة ، تتفكك الكتلة البشرية كحزمة
من سلاح يعلوها أنين كأنين الكلاب . وشخير وفرقة عظام
وشتائم .

كان الحنين إلى بلادهم يطغى عليهم في شكل قاتم غامر
كالمد ، وكانوا حريصين على التأخر في العودة إلى المأوى
ما أمكنهم التأخر ، فيظلون وسط الضباب الشمالى يرتجفون من
البرد ويسعلون ويبصقون ، تصطك أسنانهم ويدخنون اللفائف
التي لا نهاية لها ، مفتخرين كل واحد منهم بالعمل الذي حققه
ذلك النهار ، وعدد طوفات الفحم التي انتزعها من الأرض ،
كانوا يضحكون ضحك المصروعين ، وهو تأكيد للحالة

السخيفة غير المعقولة التي يحيونها ، هل شاهدتهم يسرون في شوارع فرنسا بخطى متثاقلة ، وأيد تلوح ، ووجوه شاحبة . . . ينبعث من أنوفهم البخار ، يمشون بمحاذاة الجدران ، الواحد تلو الآخر كالجردان المتسللة حتى إذا وجدوا أمامهم منعطفاً ناتئاً ، مفاجئاً كالسد وقفوا جامدين لحظة وقد بهرتهم الضجة المنطلقة من زمامير السيارات وفرامل العجلات ، وخطوات الجمهور المحمومة ، وألوف المظاهر المبعثرة لحياة ليست حياتهم ؟

إن مأساة هؤلاء الناس مثلثة : مادية ، نفسية ، وعقلية : مادية في كونهم عاشوا فقراء محرومين ، بل لإنهم « لم يعيشوا أبداً » ، إذ كانت حيواتهم مجرد انتظار ورغائب ، وكبت .

ونفسية « لأنهم فضلات ورواسب حضارة لم يتكيفوا معها » فطحنهم هذه الحضارة برحائها الثقيلة فلم يبق لدينا كما يقول البطل ، من معاني الحياة سوى الاختلاج والتخلع ، وغدا اتصالنا بالمجتمع عن طريق السباب والسرققات واللكمات ، فإننا نأكل وننام ونرى ونسمع ونعيش في جو من الثورة والحقد .

ويتجلى هذا البؤس المعنوى فى عبارة أخرى نطقت بها سيمون
 خلية البطل قالت : « عندما التقتك من الأرض لم أشهد
 بؤسك : إننى لا أعرف ولا أريد أن أعرف ما هو البؤس ،
 فإذا كنت تعنى هذه الثياب الرثة ، والجلد الوسخ ، وتلك اللحية
 القذرة ، وهذه المعدة التى ثقبها الجوع ، بل هذه العطالة عن
 عن العمل ، فليس هذا ما أسميه بؤساً ، فهو بؤس مادى ،
 زمنى ، لا أهمية له ، أما البؤس الحقيقى فهو بؤس النفوس ،
 بؤس لم يخلقه فيك فرنسى أو تاريخ ، فهو آت منك وحدك
 وستموت فيه . »

وعقلية : تكمن فى تلك الوحشة التى تنتابهم بين
 عالمين استحال فيهما التفاهم بين الفكر العربى الإفريقى
 الإسلامى والفكر الأوروبى ، عالم هؤلاء المهاجرين
 بلغته وتقاليده وعاداته وأسسهِ النفسية والأخلاقية ،
 وعالم غريب يعيشون على هامشه ، فلا يفهمون لغته ، ولا
 يستسيغون عاداته ، ولا يؤمنون بمفاهيمه ومثله فى الحياة ،
 فيعيشون فيه غرباء ، منعزلين بعد أن استحال عليهم إيجاد
 أرض مشتركة للتعايش ، وروابط وصلات للتفاهم مما جعل
 المؤلف ينطق البطل بهذه العبارة : « لقد مضى على عشر سنين

ما برح فيها دماغى الناطق والمفكر بالعربية يطحن بصورة سخينة المفاهيم الأوروبية دون جدوى حتى تحولت تلك الأفكار إلى ضغائن سمت الدماغ نفسه . »

وفى هذا رد بليغ على الزعم القائل : إن الشعب الجزائري العربى قابل للامتصاص والتمثل وإن الجزائر أرض فرنسية ! « لأن الفرنسيين يتفلسفون ، ويضعون الخطط والمشاريع ، وينظرون إلى القضية من زوايا مختلفة ، دينية واجتماعية ومادية ، ولكنهم جميعاً لا يعرفون شيئاً عن حياة العربى ونفسيته فهم يطرون فوق العرب كما يطير المرء فوق مدينة فيرقبها من عل جالساً على مقعد وثير بعد أن يكون قد ملأ بطنه ، وعكس دماغه حاملاً معه ووراءه وأمامه وفى داخل نفسه الفرضيات الرياضية القائلة إنهم وحدهم البداية والنهاية والمادة والعقوبة ، وإنهم يعرفون كيف يعيشون ويخلدون وأنهم وحدهم يملكون الحقيقة والخيال ، كما أن الاقتصاد يجب أن يوضع على صورتهم » .

فعلى من تقع التبعة فى النهاية ؟ هنا أيضاً أنطق المؤلف خلية البطل وهى تطرد صاحبها خارج دارها : « نم هذا هو

استغلال الأوربيين للجزائريين ، إني أنكر هذا دون ريب ،
 إني ساخطة على هؤلاء الذين أخرجوكم من دياركم ، فهم
 لا يعلمون ما يصنعون بكم حتى عجزوا عن الرأفة بكم ، نعم ،
 إني أعرف إعطاء الأشياء حقها ، إني أعترف بأن حضارتنا لم
 تستطع شيئاً سوى إلقاءكم في بحران اليأس ، إني لأستحي أن
 أكون أوربية ، ولكن أنتم أهل أفريقيا الشمالية الذين أنقم
 عليكم أكثر ، لأنكم أنتم المسؤولون عما وصلتم إليه ، لقد
 كنتم دوماً عرضة للاستغلال ، أنتم أردتم أن تستغلوا في
 بلادكم قبل مجيء الفرنسيين ، وكنتم في كل زمان مستغلين ،
 إنكم كالأعراق المتردية تتعاوركم الأيدي والأجيال والعصور
 كالأرض ، الفينيقيون ومن بعدهم اليونان والرومان والقوط
 والفننديون والأتراك والفرنسيون ! »

وهكذا استطاع المؤلف أن يحقق غرضه في كتاب « التيوس »
 فقد عرض شقاء قومه على أنظار الجميع في شكل كتاب
 فهو عبارة عن ثلاثمائة صحيفة مطوية تضمنت جانباً من الحقيقة
 الجزائرية .

وفي الرواية صور بديعة صنعتها يد مفن صناع نور

بعضها :

قال يصف عيني راهب : « كانت عيناه وراء نظارتيه مسطحتين لا حياة فيهما ، كأنهما كرتان من مادة (البلاستيك) أنزلتا بعناية في محجريهما » .

وقال يصف أكلولا : « ثم شرع فكاه يطبق أحدهما على الآخر كأنهما سكينتا مقصلة ! » .

وقال يصف أحلام الجائعين : « . . . حتى إذا أثقله النوم سمع ضربات أسنان وقضما ومضغاً ، وكانت الحركة تلاحقه حتى في النوم ، قوية ، آلية كأنها أحناءك قطع من الذئب مقعية حول أرنب هزيل تنهش لحمه ، وتمضغه في الليل في مكان مقفر متجمد من البرد حيث لا يعثر فيه على أرنب واحد إلا مرة كل ستة أشهر ، ولكن هناك برد وجليد ووحشة !

وقال يصف مفوض مكتب العمل الفرنسي : « انتفشت في رأسه المتورم أهدابه وشعر ذقنه ، ولم يكن له حاجبان بل كانت له عروتان من جلد أصفر تتوسطه حبتان سوداوان مدورتان لامعتان هما عيناه » .

وآخر : « جفناه جامدان كأنهما صنعا من ترابة الأسمنت تثبتان عينيه المصوبتين نحو جهة واحدة » .

قال يصف البطل وهو يقبض على خصر خيلته النحيل :
« ولو أردت إطباق يدي على خصرها لسمعت تفقيعاً يشبه
تفصم هيكل عصفور ! »
أما هي فقد نظرت إلى عينيه فإذا « هما غارقتان تحت
حاجبيه المقوسين اللذين يبدوان كحافة قبعة : فقالت في
نفسها : كأنه يريد أن يحتمي من الحياة ! »